

رأي للمناقشة...

اني أتهم... ثقافتنا المعاصرة!

بقلم محيي الدين سمعان

واذ بدأت حركتنا الثقافية المعاصرة باستهلاك هذا الضرب من الآثار ، بحوافز مركبات النقص ومولداتها ، وتحت ظروف الدل والهوان ، انقطعت اصلا وجذرا ، عن المصادر الاولى للثقافة الغربية القائمة على الحضارة الاغريقية - اللاتينية المسيحية ، بالإضافة الى انقطاعها عن الحضارة الأم ، حتى لا تكاد تجد احدا منا يستطيع ، مثلا ، أن يفهم ويستوعب صفحة واحدة من كتاب « الوجود والعدم » لسارتر فهما واستيعابا حقيقيين ، ذلك انه في غربة توشك ان تكون كاملة مطبقة سوداء ، عن جميع مصطلحات العالم المتحضر من أثينا الى الاسكندرية مروراً بروما وباريس ولندن وموسكو . ومهما كانت القيمة الموضوعية لكتاب « الوجود والعدم » الا انه كان ثمرة من ثمار عملية طويلة من مغامرات الفكر والروح ، في أوروبا ، وان له وشائج تمتد عبر قرون حضارية عديدة . وقل مثل ذلك في غيره من الآثار الفكرية والروحانية العظيمة المؤثرة في حياة العصر . وانك لا تكاد تجد أيضا ، احدا منا يستطيع أن يتمثل حق التمثل حركة اللامعقول في المسرح الغربي ، مثلا ، ذلك ان هذه الحركة قد جاءت رد فعل لخيبة مريرة يعانيتها الكاتب الغربي ازاء صفوكليس وشكسبير ورأسين وكورنسي والتراجيديات الكلاسيكية الكبرى . فاللامعقول ، بهذا المعنى ، حركة هجائية مقدعة ضد أساتذة المسرح الفاجع في الغرب الذي تقف نحن غرباء عنه تمام الغربة ، اذ ننتمي الى عالم آخر بعيد سحيق في بعده .

ولقد بدت محاولات البعض منا ، كتوفيق الحكيم ، وكأنها تسديد هجمات على طواحين الهواء ، اذ كانت بمثابة الثورة على مسرح عربي كلاسيكي لم يولد بعد ! لقد كانت محاولة بلا اية مسوغات ، لأننا لم نعان قط ، ولا على أي مستوى من المستويات ، هذا النمط من رد الفعل ، ازاء مسرح الاغريق ومسرح فرنسا الكلاسيكية ومسرح الملكة اليصابات ، ولا ما بعدها من مسارح أخر .

ويندر أن تجد احدا قد تعرف على الآثار الكبرى للتراث المسرحي العظيم . وأذكر ان مسرحية عرضت بالقاهرة لكاتب مصري معروف ، وكان عنوانها «الغرافير» ، وقد نجحت نجاحا كاسحا ، ورحب بها مثقفونا ، وقد حضرتها فوجدت انها لم تكن سوى « تعصير » (تحويلها الى مسرحية معاصرة) لمسرحية « الضفادع » للكاتب

اني أتهم ..!
اني أتهم ثقافتنا المعاصرة بالحيرة والتخلف وانعدام الخصائص الذاتية وفقدان القدرة على عناف قضاياها الكبرى ..!

اني أتهم ثقافتنا المعاصرة ، باطننا لظاهر ، جوهرها وعرضا ، أسلوبا وغاية ، نهجا ومسلكا ، بفراغها من أية أصالة ومغامرات جديّة مسؤولة ..!

اني أتهم ثقافتنا المعاصرة ، بأنها لم تعد مأذونة ، على الاطلاق ، بالتحدث عن الانسان والانسان العربي ، وعن القيم والمثل والفضائل العليا ..!

فالانسان ، والانسان العربي ، والانسانية ، والقيم الحياتية العليا ، والمثل الرفيعة والفضائل الانسانية النبيلة ، لم تعد مادة الثقافة العربية المعاصرة ، بالرغم من كل ما أرجعت به وخاضت في شطآنه ، الى أن أصابها الأين والاعياء ، وهي في ذروة رضاها عن نفسها .. وموافقها التمجيدية من الذات ومناجرتها بما لم يكن يوما ما ملكا خالصا لها ، الى أن استحالت بين يديها جميع القيم والمثل والفضائل التي تحدثت عنها الى محال .

لقد ولدت « حركتنا الثقافية المعاصرة » وفي صميمها جميع موجبات نفيتها والفائها ، ودون أن تكون عليها آثار بصماتنا نحن . لقد ولدت هذه الحركة من خلال حالة مرضية غير متسامحة ولا متفتحة . ولدت تحت ظروف الدل والهوان ، وتحت وطأة مركبات النقص التي ينوء تحت ثقلها الرازح كل فرد منا، ازاء الغرب وسطوته الفكرية القاهرة ، دون ان تكون لنا الطاقة الاصلية الحية على أن نأخذ ونتمثل ونعطي .

ان فقدان القدرة على الهضم والتمثيل ، وعلى التمييز والاحكام النزيهة ، كانت عرضا يكاد يكون خصيصة ثابتة في هذه الحركة . فقد بدأت هذه الحركة ، وكأنها محط طاقة استهلاكية لا غير .. طاقة من جملة طاقاتنا الأخر على الاستهلاك . اننا نستهلك أجهزة راديو الترانزستور وأجهزة التلفزيون وسكاير « كنت » وأصنواف يوركشاير ، ونستهلك ونستهلك ، وفيما نستهلكه أيضا ، أشعار ت. س. اليوت وبابلو نيرودا وقصص كافكا وسارتر ومسرحيات ديرنات . واستهلاكنا لهذه الآثار استهلاك عادي رخيص مسطح ، لا يعدو أن يكون استهلاك الورق الذي نشرت عليه هاتيك الآثار .

الايغريقي الساخر أرسطوفان ، وعجبت أن نشهد جميعنا هذه المسرحية ، ولا يدرك أحد منا حقيقة الصلة بين المسرحيتين . ولقد دلتني ذلك فيما بعد ، مع شواهد عديدة أخرى ، على أن عزلتنا عن منشآت الحضارة عزلة قصية مذهلة تثير الدهشة والاستغراب .

والشاعر عندنا ، كأني من المثقفين العرب ، يعاني من هذا التناقض الحاد بين الداخل والخارج . في الداخل عقم وجذب ، وافتقار إلى القدرة على الإخصاب ، وفي الخارج قدرة على المضي في الاستهلاك السريع ، دون توقف أو تأمل . وعلى غرار ما تعرف عليه في البضائع المستهلكة ، فهو يتحدث من الخارج ، وبصوت خارجي ، دون أن يكون تصعبا من الخارج إلى الداخل ، ودون أن يفتح نفسه على نفسه ، ودون أن يكون ذاته ، من غير أن يتجاوزها إلى السماء ، أو ينحدر منزلقا إلى سقر ، لن يكون هذا الإنسان المغامر العظيم ، الذي يصدر عنه الشاعر والفنان والمفكر والبطل .

ان حركتنا الثقافية بخصائصها وظروف ميلادها ومتاعب مركبات النقص فيها ، وكذبها على الذات العربية ، عاجزة عن أن تفترع فكرة عظيمة واحدة .

فجميع ما نتحدث عنه من قلق على الإنسانية من أسلحة الفتك والدمار والتخريب ومن الوحش السرطاني : القنبلة الذرية ، ما هو الا اصداء ما سمعناه عند أدب سيتويل وغيرها . فنحن لم نعان حتى تجربة الذعر من الهلاك ، لأننا لم نكن ، قط ، طرفا في أحداث العالم المبيدة وصراعه الطاحن .

ولقد تحدثنا عن القلق وضغط المدينة وعقدتها ، وحديثنا ذلك ، لم يكن سوى تقليد سمج لما قرأناه من جيمس جويس وعنه ، وكذلك من أمثاله وعنهم ممن انصرعوا تحت وطأة الصناعة الثقيلة ، في المدن الكثيفة الخائقة . وعندنا ما تزال السماء نقية طاهرة في القاهرة وبغداد وبيروت ودمشق .

ولقد تحدثنا عن غرابة العالم والعجز عن فهمه ، وحواجز الزجاج الصفيقة التي تحتجزنا عنه ، ولم تكن في ذلك سوى مقلدين غير ماهرين ، نتلهى باقتفاء كافكا وثورته على الخطيئة الاصلية في المسيحية انطلاقا من عقده اليهودية ورموز عقيدته ، واقتفاء آثار أمثاله .

ان حركتنا الثقافية المعاصرة التي تحدثت بأسراف واسهاب عن قضايا الانسان والتي كانت تبدو في ذلك وكأنها انطلاق من الوجدان ، وصدور عن الداخل ، هذه الثقافة قد أدانت نفسها بصمتها عن أكبر قضية تواجهها اليوم بالتحددي الصهيوني الجارح الاثم للوجود الحضاري العربي ، بل للوجود العربي كله .

هذه الثقافة التي كانت تثرثر بانفعال ، عن جميع القضايا وبجميع المستويات ، وقد أقلقت الأرض والسماء

بالحديث بصوت مرتفع عن كل شيء ، تعجز اليوم عن الابانة عن قضية كبرى تواجهها بقوة وبكل ما في التاريخ من ضفط هي قضية : نكون أو لا نكون !

هذه الثقافة تفرق اليوم في الظل وتلوي عنقها وتصمت دون أن تكون لها القدرة على التعبير الحقيقي عن ذاتها ، لأنها لم تكن ذاتها ولا في يوم من الايام ، وبعد أن كانت تمثل دور الوقوف بين القداسة والجنون وتصطنع الذعر الخلاق والقلق المدع عن مصير الانسان .

هذه الثقافة التي تحدثت بالامس عن عذاب الانسان ، كل انسان ، وأي انسان ، وسفحت الدموع الغزار من أجله ، وقالت الكثير في أشواقه ، وشغلت نفسها بهوموم العالم دون أن يغمض لها جفن ، واجتاحتها حمى الكتابة من أجل كل شيء ، وأي شيء وبلا ثمن . . . هذه الثقافة يصيبها العته والبلاهة والخدر فلم تعد تستشعر وخز الدبابيس أو النصال في جسدها .

والمثقف العربي اليوم ، يواجه عصرا من الحيرة العميقة لا كحيرته بالامس ، انها حيرة آمادها الوجود بأسره ، حيرة تنبع من مواجهة صارمة للوجود والحياة والعالم على حين غرة ، ودون أن يستعد لها بأخصاب حقيقي جدي للذات ، يجعله قادرا على الالتزام بتبعات مفامرات فكرية وروحية شهمة جسورة يستطيع أن يشق بها تاريخ المستقبل .

وبالرغم من كل ما في هذه الحيرة من تمزق ازاء المصير ، الا انها لم تبلغ بعد ذروة القلق المدع . ان بين المثقف العربي وبين هذا الضرب من القلق آمادا كونيّة وكيانية شاسعة لا بد أن يقطعها ويتجاوزها لكي يقول كلمته . . . لكي ينطق بالسلب والايجاب ، ويصوغ تاريخ المستقبل .

ان الحيرة والتخلف في الحركة الثقافية العربية المعاصرة ينسحبان على جميع مجالاتها ، بل على جميع احتمالاتها وما يمكن أن يصدر عنها ، في مرحلتها الراهنة ، حتى لتبدو هذه الحركة وكأنها سكون عقيم عاقر مفروض عليها أن تولد لتموت دون ذرية ودون أن تترك أثرا ، ومن غير أن ترتفع إلى المستوى الذي أصبح عليه حقيقة تاريخية في حياتنا ، ومن غير أن تزيد من خصائصنا الذاتية ، أو حتى أن تنطلق بحرف جديد .

وهكذا يظل أمامنا مخاض جديد ، لتولد حركة ثقافية عربية جديدة نقرأ فيها الذات العربية ، بلا زيف ، وبلا تلوث بمركبات النقص ، بعد أن انهارت وسقطت تلك الحركة التي تعتمص بهذا الصمت المدوي ، مذ أن واجهها السؤال الكبير : نكون أو لا نكون .

محيي الدين اسماعيل